دكتور محمود حمدي زقزوق
وكيل كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
بجامعة قطر

الإسلام والاستشراق

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

دار التضامن للطباعة
٢٤ شارع سامي - ميدان لاظوغلي
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام والاستشراق (١)

١ ــ تمهيد :

ان مما لا جدال فيه ان الاستشراق له اثر عظيم فى العالم الغربى وفى العالم الاسلامى على السواء وان اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين . ولا يكاد المرء فى عالمنا العربى المعاصر يجد مجلة أو صحيفة أو كتابا الا وفيها ذكر أو اشارة الى شىء عن الاستشراق أو يمت اليه بصلة قريبة أو بعيدة . وهذا أمر ليس بمستغرب وذلك لأن الاستشراق فى حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الاسلامى والعالم الغربى ، بل يمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك ونقول ان الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع . ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر اليه على انه قضية منفصلة عن باقى دوائر هذا الصراع الحضارى . فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوروبية عن الاسلام وفى تشكيل مواقف الغرب ازاء الاسلام على مدى قرون عديدة .

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى عالمنا العربى الاسلامى ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى أقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل مشتغل به بوصفه عدوا لدودا للاسلام والمسلمين .

والواقع الذى لا يمكن انكاره هو ان الاستشراق له تأثيراته القوية فى الفكر الاسلامى الحديث ايجابا أو سلبا أردنا أم لم نرد .

---

(١) محاضرة القيت ضمن محاضرات الموسم الثقافى للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى ١٤٠٣/٣/٤ هـ الموافق ١٩٨٢/١٢/١٩م .

ولهذا فاننا لا نستطيع ان نتجاهله أو نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة ، اننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأســـها فى الرمال . ولهذا فانه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول واقتراح البدائل .

ومن أجل ذلك أردت أن أحدثكم اليوم عن الاستشراق وأبعاده فى موضوعية هادئة أو فى هدوء موضوعى . ولن نستطيع بطبيعة الحال فى محاضرة كهذه أن نوفى هذا الموضـــوع حقه من البحث ونســـتوفى الحديث عن كل جوانبه ، ولكن حسبنا أن نلقى بعض الضوء على بعض النقاط الهامة ، لعل ذلك يكون حافزا لنا على التفكير والتأمل فى هذا الموضـــوع . ونبدأ أولا بالقاء نظرة تاريخية على الحركة الاستشراقية وتطورها . وقد تبدو مثل هذه النظرة التاريخية لأول وهله شيئا معادا ومكررا ، ولكن لابد لنا على الرغم من ذلك من الامساك بشتى الخيوط التى تساعدنا على الالمام بجوانب الموضوع ، فضلا عن أننا من خلال هذه النظرة سنتعرف عن قرب على تطـــور الدراسات الاسلامية لدى المستشرقين .

***

٢ ــ تاريخ الاستشراق وتطوره :

ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين الى مطلع القرن الحادى عشر ويرى المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت أن بداية الدراسات العربية والاسلامية فى أوروبا تعود الى القرن الثانى عشر . وقد جعل نجيب العقيقى كتابه عن المستشرقين فى أجزائه الثلاثة سجلا للاستشراق على مدى ألف عام .

وعلى أية حال فان الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصـــة الى

اشتغال الأوروبيين بتعاليم الاسلام وعاداته . وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون فى ذلك الوقت ضد الاسلام وزعموا فيما زعموا أن الاسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمدا ليس الا صنما أو اله قبيلة أو شيطانا ، وغذت الأساطير الشعبية ولخرافات خيال الكتاب اللاتينيين . ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الاسلام ، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى ذلك الزمان . وقد اعترف أحد ممثليهم وهو « جيبير دو نوجينت » Guibert de Nogent بانه لا يعتمد فى كتاباته عن الاسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط الى آراء العامة وانه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ، ثم قال مبررا كتاباته غير العلمية « لا جناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء » . وقد أطلق « ساوذرن » Southern على هذه الفترة فى كتابه « نظرة الغرب الى الاسلام فى القرون الوسطى » عنوان : عصر الجهالة .

وفى مقابل تلك الصورة البغيضة للاسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول الى قدر من الموضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية . يقول « مكسيم رودنسون » عن تلك الفترة : « ولا يصادف المرء موقفا موضوعيا الا فى مجال مختلف تماما لا يمت الى الدين الاسلامى الا بصلة بعيدة واعنى العلم بأوسع معانيه » .

وقد أخطأ « رودنسون » هنا فى جعله العلم لا يمت الى الاسلام الا بصلة بعيدة . فقد كان الاسلام فى واقع الأمر وراء كل انجاز علمى حققه المسلمون فى مختلف المجالات .

وبدءا من عام ١١٣٠ كان العلماء المسيحيون فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم ، وكان لرئيس أساقفة طليطلة الفضل فى اخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية

العربية بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكى . وكانت هناك فى القرن الثانى عشر أيضا بعض المحاولات للتعرف على الاسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الاسلامية الالحادية . ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت ١١٥٦) رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة من المترجمين فى اسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الاسلامى . وفى تلك الفترة ظهرت أول ترجمة للقرآن عام ١١٤٣ قام بها الانجليزى « روبرت أوف كيتون » Robert of Ketton .

وهكذا نجد انه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف ازاء الاسلام . أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاها لاهوتيا متطرفا فى جدله العقيم ، ناظرا الى الاسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية . أما الاتجاه الثانى فقد كان نسبيا بالمقارنة الى الاتجاه الأول أقرب الى الموضوعية والعلمية ، ونظر الى الاسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة . ولكن الاتجاه الخرافى ظل حيا حتى القرن السابع عشر وما بعده . ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيا فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الاسلام ونبيه .

وأحد المسيحيين المستنيرين القلائل الذين كانوا يتبنون ازاء الاسلام موقفا أقرب الى الاعتدال كان فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح امبراطورا حوالى عام ١٢٢٠م وكان يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية . وقد كان نصيب هذا الامبراطور أن طرده البابا « جريجورى التاسع » Gregory IX من الكنيسة عام ١٢٣٩ . وقد كانت احدى التهم التى وجهت اليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الاسلام .

والأمر المهم بالنسبة لتطور الاستشراق كان الاقتناع بضرورة تعلم لغات المسلمين اذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح . ومن بين من تبنى هذا الرأى الذى فرض نفسه بالتدريج — « روجر بيكون » Roger Bacon« ورايموند لل » Raimund Lull وقد صادق مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولل بشأن تعلم اللغات الاسلامية واللغة العربية على وجه الخصوص . وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعات باريس وبولونيا وأكسفورد وسلمنكا .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية فى نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك . وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وايطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر اثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية .

وفى القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الانسانية فى عصر النهضة الأوروبية الى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل ، ومن ناحية أخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير . وفى عام ١٥٣٩ تم انشاء أول كرسى للغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » فى باريس . وشغل هذا الكرسى « جيوم بوستل » Guillaume Postel (ت ١٥٨١) الذى يعد أول المستشرقين الحقيقيين . وقد أسهم كثيرا فى اثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوروبا ، وجمع فى الوقت نفسه وهو فى الشرق مجموعة هامة من المخطوطات . وقد سار على نهجه تلميذه « جوزيف اسكاليجر » Joseph Scaliger (ت ١٦٠٩) وفى عام ١٥٨٦ استفادت اللغة العربية فى أوروبا من المطابع التى أسسها الكاردينال دوق تسكانيا الكثير .

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات

الاسلامية ، وأنشئت كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة ، ومما هو جدير بالفكر أن قرار انشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج عام ١٦٣٦ قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجـاري والآخر تبشيري . فقد جاء في خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة في جامعة كامبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦ الى مؤسسي هذا الكرسي ما يأتي : « ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل الى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلا من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعليمها ، ولكنا نهدف أيضا الى تقديم خدمة نافعة الى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، والى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة الى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات » . وفي القرن السابع عشر أيضا ظهرت مؤلفات عامة عن الاسلام والحضارة الاسلامية والأدب الاسلامي . وبدلا من الآراء التي تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت عن محمد بوصفه بأنه شيطان ، وعن القرآن بوصفه بأنه مزيج من اللغو الباطل ظهرت آراء أخرى أقل عنفا ، وذلك على سبيل المثال لدى « بيير بايل » Pierre Bayle في قاموســه التاريخي والنقــدي « روتردام ١٦٩٧ » ، أو لدى « سيمون أوكلي » ١٦٧٨ — ١٧٢٠ في كتابه تاريخ السراسنة أي العرب المسلمين . فالسرد التاريخي في هذا الكتاب يعد نسبيا غير متحيز ، ولكن وصــف المؤلف للنبي ﷺ بأنه « رجل خبيث جدا وماكر ، وان ما كان يبديه من شمائل طيبة مجرد أمر ظاهري يخفي حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع » هذا الوصف أسـقط المؤلف مرة ثانية في بؤرة المواقف اللاهوتية الســابقة .

وقد كانت أول محاولة علمية جادة للتعرف على الاســلام على يد « هادريان ريلاند » Hadrian Reland أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولاندا . فقد صدر له كتاب باللغة اللاتينية عن

الاسلام عام ١٧٠٥م بعنوان « الديانة المحمدية » فى جزءين عرض فى أولهما العقيدة الاسلامية معتمدا على مصادر بالعربية واللاتينية . وفى الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغريبة التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الاسلام . وقد أثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة ادت الى اثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للاسلام ، فى حين أنه لم يكن يقصد الا الى الوصول الى فهم الدين الاسلامى فهما صحيحا ممهدا بذلك السبيل الى محاربته من جانب المسيحية بطريقة أفضل من ذى قبل .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية ادرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها . وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب الى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والأسبانية . ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب الى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، اما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبىء عن قصد خبيث . وقد تعرض الاسلام الى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى . ويقول ريلاند « ان المرء يصح له حقا أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » . ولهذا يريد أن يعرض الاسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبث الناس ، وانما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم . فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور الى مثل ما تعرض له الاسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء . وقد وصل الأمر الى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمدية كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح وأن كل ما فيها فاسد . واذا أبدى أحد رغبة صادقة فى التعرف على الاسلام لا تقدم له الا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات . ويضيف « ريلاند » قائلا : ينبغى على المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع

محمدا نفسه وهو يتحدث فى لغته ، كما ينبغى على المرء أن يقرأ فى الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن . فقد أعطى الله العقل لكل الناس . وقد كان فى رأيى دائما أن ذلك الدين الذى انتشر انتشارا بعيدا فى آسيا وافريقيا ، وفىأوروبا أيضا ليس دينا ماجنا أو دينا سخيفا كما يتخيل كثير من المسيحيين .

وبعد ذلك يقول ريلاند : صحيح أن الدين الاسلامى دين سىء جدا وضار بالمسيحية الى حد بعيد . ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ الا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ ان الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف عليه حقيقة لكى يحاربه بطريقة أكثر أمانا وأشـــد قوة .

وقد تكون عبارات « ريلاند » الأخيرة هذه مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس .

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد فى عام ١٧٩٥ أنشئت فى باريس مدرسة اللغات الشرقية الحية وبدأت حركة الاستشراق فى فرنســا تتخذ طابعــا علميا على يـــد « سلفســـتر دوســـاسى » Silvestre de Sacy (ت ١٨٣٨) الذى أصـــبح امام المستشرقين الأوروبيين فى عصره .

وفى عـــام ١٧٧٩ ظهـــر فى انجلتـــرا مفهوم « مســـتشرق » Orientalist وسرعان ما ظهر بعد ذلك فى فرنســـا عـــام ١٧٩٩ . وأدرج مفهوم « الاستشراق » Orientalism فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ .

وهنـــاك كثير من المســـتشرقين ــ وبوجـــه خاص فى المـــانيا والنمسا ــ بدأوا طريقهم فى مجال الاستشراق مترجمين أو قناصل لدولهم فى الشرق الأوسط : مثل « جوزيف فون هامر برجشتال » (ت ١٨٥٦) مؤسس أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى « فيينا » من عام ١٨٠٩ الى عام ١٨١٨ . وفى ذلك الوقت بدأ المستشرقون فى مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بانشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية . فقد تأسست أولا الجمعية الآســـيوية فى باريس عام ١٨٢٢ ثم الجمعية الملكيـــة الآســـيوية فى بريطانيا وأيرلندا عـــام ١٨٢٣ ، والجمعية الشرقية الأمريكية ١٨٤٢ والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥ .

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى اصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . وفى نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الاسلامية تخصصا قائما برأسه داخل الحركة الاستشراقية العامة . وقد كـــان كثير من علماء الاسلاميات والعربية فى ذلك الوقت ــ مثـــل نولدكه وجولد تسيهر وفلهاوزن ــ مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية أو فى دراسة الكتاب المقدس .

وفى عام ١٨٩٥ ظهرت فى باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الاسلامى وهى مجلة الاسلام ، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦ مجلة العالم الاسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب ، وقد تحولت بعد ذلك الى مجلة الدراسات الاسلامية .

وفى عام ١٩١٠ ظهرت مجلة « الاسلام » **Der Islam** الألمانية ، وفى « بطرسبرج » بروسيا ظهرت مجلة « عالم الاسلام » **Mir Islama** عام ١٩١٢ ولكنها لم تعمر الا وقتا قصيرا . وفى بريطانيا ظهرت مجلة

« العالم الاسلامى » عام ١٩١١ على يد صمويل زويمر (ت ١٩٥٢) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط .

وقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الاسلامى دوره فى استخدام فئة من المستشرقين للمساعدة على تحقيق الأهداف الاستعمارية فى بلاد المسلمين عن طريق دراساتهم الموجهة الى خدمة الاستعمار . وسنعود الى الحديث عن هذه النقطة مرة أخرى ان شاء الله .

وقد بقيت هنا فى الحديث عن تاريخ الاستشراق وتطوره نقطة أخرى تتعلق بدور المستشرقين اليهود فى اطار الحركة الاستشراقية والأسباب التى دفعتهم الى الاستشراق .

ان من الصعب الحصول على اجابة صريحة على هذه النقطة . فقد أغفلت المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره — أغفلت الحديث عن هذا الجانب . ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع الى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصرا أساسيا فى اطار الحركة الاستشراقية الأوروبية المسيحية . فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبى لا بوصفهم اليهودى . وقد استطاع جولد تسيهر فى عصره — وهو يهودى مجرى — أن يصبح زعيم الاسلاميات فى أوروبا ، ولا زالت كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كافة فئات المستشرقين . وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالى يقل تأثيرهم . ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولا فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها ، وكسبوا ثانيا تحقيق أهدافهم فى النيل من الاسلام ، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين المسيحيين .

ويشير المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر

الاسلامی الحدیث » (ص٥٣٤) الی **ملاحظة لبعض الباحثین حول** تفسیر اسباب اقبال الیهود علی الاستشراق .

وتتلخص هذه الملاحظة فی أنهم أقبلوا علی الاستشراق **لأسباب دینیة** تتمثل فی محاولة اضعاف الاسلام والتشکیك فی قیمه باثبات فضل **الیهودیة علیه بادعاء أن الیهودیة فی نظرهم هی مصدر** الاسلام الأول . **ولأسباب سیاسیة** تتصل بخدمة الصهیونیة فکرة أولا ثم دولة ثانیا . ویری الدکتور البهی أن وجهة النظر هذه علی الرغم من أنها لا تعتمد علی مصدر مکتوب یؤیدها ، فان الظروف العامة والظواهر المترادفة فی کتابات هؤلاء المستشرقین تعزز وجهة النظر هذه وتضفی علیها بعض خصائص الاستنتاج العلمی .

ونحن فی الواقع لسنا فی حاجة الی دلیل لاثبات کراهیة الیهود للاسلام ، وذلك لأن هذه الکراهیة قد ظهرت واضحة کالشمس منذ ظهور الاسلام . وقد أکد القرآن ذلك فی قوله تعالی : **« لتجدن أشد الناس عداوة للذین آمنوا الیهود والذین أشرکوا »** (١) . وقد ظل الیهود طوال تاریخهم یتحینون کل فرصة متاحة لیکیدوا للاسلام والمسلمین . وقد وجدوا فی مجال الاستشراق بابا ینفثون منه سمومهم ضد الاسلام والمسلمین ، فدخلوا هذا المجال مستخفین تحت رداء العلم ، کما وجدوا فی الصهیونیة بابا آخر یفرضون منه سیطرتهم علی العرب المسلمین .

***

٣ — مواقف المستشرقین :

وبعد هذه النظرة السریعة علی تاریخ الاستشراق وتطوره ننتقل الی الحدیث عن نقطة أخری وهی مواقف المستشرقین . وهذا الموضوع یعد موضوعا حساسا للغایة ، اذ أن المواقف الاستشراقیة تشتمل

---

(١) المائدة : ٨٢ .

من غير شك على بعض الجوانب الايجابية التى يجب أن تذكر لهم ، كما تتمثل فى المواقف الاستشراقية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم . وحتى نكون موضوعيين فانه لابد لنا من الاشارة الى ما لهم من ايجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات . ولا ضير على المرء اذا اعترف بما لعدوه من مزايا ، اذ ان ذلك ربما يكون حافزا لنا على النهوض والاستعداد من جديد ، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا — نحن المسلمين — ظروف العصر .

أما هذه الايجابيات التى سنذكر طرفا منها هنا فأود أن أنبه الى أن بعضها يعد أمورا تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم ، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط ، وبعضها الآخر أمور تتصل بانتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب ، وان كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة أنفسهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم .

(أ) الجوانب الايجابية :

وتتمثل الجوانب الايجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

١ — يخدم المستشرقون أهدافهم التى وضعوها لأنفسهم باخلاص تام لهذه الأهداف وتفان الى أقصى حد وبكل الوسائل . وعندما أراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتابا عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحى لا يجوز له أن يدخل مكة ، فانتحل اسما اسلاميا هو عبد الغفار ، وزار مكة عام ١٨٨٤ وأقام هناك مدة خمسة أشهر ، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها . وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج الى مكة ، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر — فى جزءين — وصف فيه مكة وصفا دقيقا شاملا مع خرائط عديدة . والمستشرقون بصفة عامة

لديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس واحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة . وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق الى « الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم » .

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين لدولى الخامس والعشرين « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى . وانى اشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات . واظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها » .

٢ — هناك ترابط تام بين جماعات المستشرقين فى مختلف لبلدان وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والاسلامية . فقنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والمطبوعات المختلفة . وقد بلغ عدد المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ عام ١٨٧٣ حتى عام ١٩٦٨ ثلاثين مؤتمرا . وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الاقليمية . وتضم المؤتمرات الدولية مئات العلماء . فمثلا مؤتمر «أكسفورد» كان يضم ٩٠٠ عالم من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية . ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث قطاع معين من الدراسات الاستشراقية .

٣ — التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والاسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه . ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الاسلامية والعربية فى بلادنا العربية . ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والاسلامية قديمها

وحديثها . وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالاثم اذا ما نبهته الى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

٤ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ ــ وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين . وقد تم اصدارها فى طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية فى الفترة من عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٨م وقد ترجمت الى العربية حتى حرف العين . وقد أصدر المستشرقون طبعة جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وقد ظهرت هذه الطبعة الجديدة فى الفترة من عام ١٩٥٤ الى عام ١٩٧٧ . وقد أشار نجيب العقيقى الى أن اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف ترجع الآن الى الطبعة الجديدة ابتداء من حرف العين بدلا من الرجوع الى الطبعة القديمة التى تقادمت بعض معلوماتها .

٥ ــ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ت ١٩٥٦) وهو كتاب أساسى فى الدراسات العربية لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربية والاسلامية . وهذا الكتاب لا يقتصر على الأدب العربى وفقه اللغة ، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الاسلامية ، فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها ، والمطبوع ، ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين . وقد صدر أولا فى مجلدين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٢ ثم أتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٢ ثم أعاد نشر المجلدين الأساسيين فى عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٩ فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية . وقد وافق المؤلف على طلب الجامعة العربية على ترجمة الكتاب

الى اللغة العربية . ولكن المشروع لازال للأسف يتعثر حتى الآن . ويقوم الباحث التركى المسلم « فؤاد سيزكين » ، تلميذ المستشرق الألمانى « هاموت ريتر » — بعد اكتشاف آلاف المخطوطات — يقوم باكمال عمل « بروكلمان » وذلك فى كتابه « التراث العربى » بالألمانية الذى ترجم بعضه الى العربية ، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات . والحق يقال انه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب « فؤاد سيزكين » .

٦ — جمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى السبل ، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة ، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفا دقيقا ، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين فى مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو اجراءات معقدة . وقد قام مثلا « ألوارد » Ahlwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة « برلين » فى عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فنا ودقة وشمولا ، وصدر هذا الفهرس فى نهاية القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط . وقد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الأوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة . وتقدر المخطوطات العربية الاسلامية فى مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها الى مئات الآلاف .

وهنا أيضا كلمة حق يجب أن تقال وهى ان انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات الى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة . وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والاسلامية وما آل اليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها .

٧ — للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم . واخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف . الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالاضافة الى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الامام أحمد بن حنبل . وقد تم نشره فى سبعة مجلدات فى الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٦١ . وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الاسلامية فى العالم . وقد تعاون على اخراجه عدد من المستشرقين المعروفين . ونشير أيضا الى الجهد الذى بذله « أوجست فيشر » (ت ١٩٤٩) فى معجم اللغة العربية القديمة مرتبا على المصادر . فقد قضى فيشر أربعين عاما فى جمعه وتنسيقه وتعاون معه عدد من المستشرقين .

٨ — قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث . وقد عرفنا الكثير من هذا التراث محققا ومطبوعا على أيديهم . ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضا بترجمة مئات الكتب العربية الاسلامية الى كافة اللغات الأوروبية .

***

(ب) الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التى القيناها على ما للمستشرقين من ايجابيات يحق لنا الآن أن ننبه الى الجوانب السلبية فى تفكيرهم ودراساتهم . وتنصب النواحى السلبية بصفة أساسية على دراساتهم عن الاسلام وما يتصل به . وفيما يلى نعرض نماذج من هذه السلبيات :

١ — يعد الاستشراق اسلوبا خاصا فى التفكير ينبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب . « فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور « كبلنج » Kipling . فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون

منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شيء .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة ، وهى أن الحضارة الغربية — التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية — مبنية فى الأصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام ، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب . وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية الى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق أمرا مخالفا للمنطق . فالمسيحية دين شرقى . والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق متخلف لأنه يدين بالاسلام ، زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع ، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالمسيحية كدين ، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الاسلام وزره . فهذا التخلف يعد — كما يقول المرحوم « مالك بن نبى » عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

٢ — الاستشراق — من بين شتى العلوم الأخرى — لم يطور كثيرا فى أساليبه ومناهجه . وفى دراسته للاسلام لم يتخلص قط من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساسا . ولم يتغير شىء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ . وتخدم اليوم وسائل الاعلام المتعددة فى الغرب فى تأكيد وتقوية الوضع التقليدى الذى لا يزال ينظر الى الاسلام الى حد كبير بمنظار القرون الوسطى . ولعل هذا هو مادعا السكرتير العام للمجلس الاسلامى الأوروبى فى شهر يناير ١٩٧٩ الى التنديد بوسائل الاعلام الغربية لموقفها من الاسلام ، ووصفه لهذا الموقف بالاجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها . وهذا كله يحدث على الرغم من أن

مجلس الفاتيكان قد أشاد فى أكتوبر ١٩٦٥ بالحقائق التى جاء بها الاسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويســوع ومريم والأنبياء والمرســلين ، وعلى الرغم أيضا من قول المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » : ان الدراسات الاستشراقية منذ منتصــف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى الى نوايا جانبية غير صافية .

وللمستشرق الفرنسى المعاصر « رودنسون » وجهة نظر أخرى حيث يذهب الى القول بأن هناك ثورة فى التفكير قد حدثت فى التصورات الأوروبية للاسلام ، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة . فلم يعد بامكانهم الزعم الكاذب بأنه « محتال شيطانى » كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى . وفى الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون الحكم بحذر ، فاننا نجد بعض الكاثوليك المتخصصين فى الاسلام يعتبرون محمدا ﷺ « عبقريا دينيا » ، ويتساءل آخرون عما اذا كان فى الامكان اعتباره بطريقة ما نبيا حقيقيا ما دام القديس توماس الاكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال . ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبى ﷺ التى تعنى اصطفاءا الهيا ووحيا سماويا وعصمة ربانية .

والواقع انه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا — نحن المسلمين — فى الرأى حول الاســلام ، وانما الغريب أن يتفقوا معنا فى الرأى . وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للاسلام ونبيه يــختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين . ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر الى الاسلام على أنه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وأن محمدا خاتم النبيين ، وأن القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنهم لو فعلوا ذلك

لأصبحوا مسلمين . وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للبعض منهم ممن تحول الى الاسلام . وهذا التحول الى الاسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى .

ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقد عندما يكتب عن الاسلام . ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم . فعندما أرفض وجهة نظر معينة لابد أن أبين للقارىء أولا وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها ، ثم لى بعد ذلك أن أخالفها . وعلى هذا الأساس نقول : ان الكيان الاسلامى كله يقوم على أساس الايمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحيا من عند الله . ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الاسلام حتى يستطيع القارىء أن يفهم سر قوة هذا الايمان فى تاريخ المسلمين ، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين فى معتقدهم وتصوراتهم . أما أن يعرض المستشرق الاسلام بادىء ذى بدء من خلال تصورات سابقة مبنية على خيالات وأوهام فهذا ما لا يقره علم ولا خلق . وهذا ما يجعلنا نقول — مع الدكتور حسين مؤنس — : ان محمدا الذى يصوره المستشرقون ليس هو محمد الذى نؤمن برسـالته ، وانما هو شخص آخر من صنع خيالهم ، والاسلام الذى يعرضونه فى كتبهم ليس هو الاسلام الذى ندين به ، وانما هو اسلام من اختراعهم .

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق — فى دراسته للاسلام — ليس علما بأى مقياس علمى ، وانما هو عبارة عن ايديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الاسـلام بصرف النظـر عما اذا كانت هـذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات . وهـذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديما . فاذا وصفنا المستشرقين فى دراستهم للاسلام — الا بعض الشواذ منهم — اذا وصفناهم بأنهم السوفسطائيون الجدد فنحن

بذلك لم نتجن عليهم على الاطلاق . ولكن الانصاف يقتضينا أيضا أن نقول : ان الدراسات الاستشراقية كلما كانت بعيدة عن مجالات العقيدة الاسلامية كلما كانت أقرب الى الموضوعية وأبعد عن التحامل .

٣ — يعمد المستشرقون الى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الاسلامى وعلى نبيه . فالمسيح — فى نظر المسيحيين — هو أساس العقيدة ، ولهذا تنسب المسيحية اليه . وقد طبق المستشرقون ذلك على الاسلام واعتبرو أن محمدا يعنى بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية ، ولهذا أطلقوا على الاسلام — اسم « المذهب المحمدى Mohammedanism » ولكن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو اعطاء الانطباع بأن الاسلام دين بشرى من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية الى المسيح فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله . وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح يكون المسيح فيها هو المقياس : فمحمد مزواج وشهوانى فى مقابل المسيح العفيف الذى لم يتزوج ، ومحمد محارب وسياسى أما يسوع فهو مسالم مغلوب ومعذب يدعو الى محبة الأعداء .. وهكذا .

٤ — الخلط بين الاسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الاسلامى فى عالم اليوم . فاسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل كيسلنج اسلاما ميتا . أما الاسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الاسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الاسلامية ، وهو تلك الممارسات السائدة فى حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الاسلام الأول .

٥ ـــ التأكيد على اهمية الفرق المنشقة عن الاسلام كالبابية والبهائية والقاديانية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة ، وتعميق الخلاف بين السنة والشيعة . ودائما يعتبرون المنشقين أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ، ودائما يهتمون بكل غريب وشاذ ، ودائما يقيسون ما يرونه فى العالم الاسلامى على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة . وقد أشار المستشرق رودنسون الى ذلك حين قال : « ولم ير المستشرقون فى الشرق الا ما كانوا يريدون رؤيته ، فاهتموا كثيرا بالأشياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوروبا ، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه » .

٦ ـــ يفتقد المرء الموضوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الاسلامى فى حين انهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثـــل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين فى عرضهم لها . فالاســــلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغرب هو الذى يهاجم . والمســـلمون فقط من بين الشرقيين جميعا هم الذين يوصمون بشتى الأوصاف الدنيئة . ويتساءل المرء : لماذا ؟ .

ولعل تفسير ذلك يعود الى أن الاسلام كان يمثل بالنســـبة لأوروبا صدمة مستمرة . فقد كان الخوف من الاسلام هو القاعدة ، وحتى نهاية القرن السابع عشر كان « الخطر العثمانى » رابضا عند حدود أوروبا ويمثل ـــ فى اعتقادهم ـــ تهديدا مستمرا بالنسبة للمدنية المسيحية كلها .

ولهذا يمكن القول ـــ كما يقول ادوارد سعيد ـــ بأن الاستشراق من الناحية النفسية يعد صورة من صور جنون الاضطهاد . فالاسلام

اذن حتى فى عصر ضــــعف اتباعه لا يزال يمثل تحديا عــــلى كافة المستويات . فهل يعى المسلمون هذه الحقيقة ؟ .

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله « موير » Muir : « ان سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضد الحضارة والحرية الحقيقية » ، وما يزعمه فون جرونيباوم من أن الاسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها فى أى دين آخر أو حضارة أخرى . فهو دين غير انسانى وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية . وهو دين غير اخلاقى وغير علمى واستبدادى .

وهكذا ينضح الحقد الدفين على الاسلام باستمرار بمثل هــــذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العلم نصيب .

٧ — يعطى الاستشراق لنفســـــه فى دراسته للاسلام موقف ممثل الاتهام والقاضى . فبينما نجد مثلا أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشك اسس المجتمع الذى يدرسه ، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل وحق الاتهام والرفض للأسس الاسلامية التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى . وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون نوايا علمية صافية كما يدعى المستشرق رودى بارت .

٨ — تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذى أذل العالم الاسلامى حقبة من الزمان فى العصر الحديث . ويقول المستشرق المعاصر « اشتيفان فيلد » بصدد الاشارة الى تلك الفئة من المستشرقين : « والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يســــمون أنفسهم مستشرقين ، سخروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الاسلام والمسلمين ، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة » .

ومن بين الأمثلة العديدة فى هذا الصدد نذكر المستشرق « كارل هينريش بيكر » (ت ١٩٣٣) مؤسس مجلة الاسلام الألمانية . فقد قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى افريقيا . أما « بارتولد » Barthold (ت ١٩٣٠) مؤسس مجلة Mir Islama الروسية فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى . أما عالم الاسلاميات الهولندى الشهير « سنوك هورجرونيه » (ت ١٩٣٦) فقد لعب دورا هاما فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى اندونيسيا ، أما المستشرق الفرنسى المعروف ماسنيون فقد كان مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال افريقيا . وغير هؤلاء كثيرون وضعوا أنفسهم وعلمهم ودراساتهم فى خدمة الاستعمار ضد الاسلام والمسلمين .

٩ — الدعوة الى اصلاح الاسلام : يزعم المستشرقون أن الاسلام دين جامد ، وأنه لم يعد مسايرا لروح العصر . ولذلك فهو فى حاجة الى اصلاح جذرى . وفى ذلك يقول أحد المستشرقين « ان على الاسلام اما أن يعتمد تغييرا جذريا فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة » . وهذه دعوة يوجهها الى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى دينهم . وهذا الاصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الاسلام ، وجعل الاسلام أقرب الى المسيحية بقدر الامكان .

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا الى أن الاسلام يشتمل على أصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئا وهى عقائد الاسلام الأساسية ، ويشتمل على فروع وهى قابلة للتغيير حسب المصلحة الاسلامية ، وأن الاصلاح الذى نفهمه نحن المسلمين هو اصلاح للفكر الاسلامى الذى هو فى حاجة الى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة فى اطار من التعاليم الاسلامية .

ولكن الدعوة الى اصلاح الاسلام أو تحديثه كما يقال احيانا ليست بهذا المفهوم ، وانما هى عبارة عن تفريغ الاسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع ، وجعله مجرد تعاليم خلقية شـــأنه فى ذلك شأن الديانة المسيحية .

ويتورط البعض من أبناء المســـلمين فى حمل لواء الدعوة الى اصلاح الاسلام كما يفهمها المستشرقون . ومن احدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى ألمانيا الغربية فى العام الماضى (١٩٨١) بعنوان ازمة الاسلام الحديث — لمؤلف عربى مسلم يعمل استاذا فى جامعة فرانكفورت بألمانيا ، يدعو فيه بحماس الى الأخذ بالنموذج الغربى فى الاصـــلاح المتمثل فى جعـــل الدين مجـــرد تعاليم خلقية لا تكاليف الزامية . فذلك فى نظره هو الحل الوحيد لأزمة الاسلام ، وبذلك يتم ابعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب النموذج العلمانى الغربى .

وهكذا نوفر نحن ابناء المسلمين على المستشرقين بذل الجهد فى هذا السبيل ، ونتولى نحن الدعوة الى تحقيق الأهداف التى عاشـــوا قرونا طويلة يعملون من أجلها دون جدوى .

***

٤ — موقفنا من الاستشراق :

والآن — وبعد أن اتضـــحت لنا بعض الشىء أبعاد المواقف الاستشراقية بخيرها وشرها — لابد لنا من الحديث عن موقفنا — نحن المسلمين — من الاستشراق — وهذا يستدعينا أن نتذكر ما كان يفعله أسلافنا فى مثل هذه المواقف .

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة — التى كـــانت تمثل تحديا للاسلام والفكر الاسلامى الأصيل فى عصور الاســـلام الزاهرة — كانت حافزا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف

أمامها بقوة وصلابة . وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه .. فقد هضم الفكر الاسلامى تلك التيارات هضما دقيقا واستوعبها استيعابا تاما ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية .. فالمواجهة اذن كانت مواجهة فكرية . وكأن التاريخ الآن يعيد نفسه ، فالحرب الآن بين الاسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار ، والمعركة معركة فكرية ، ولهذه المعركة ادواتها التى يجب التسلح بها ، فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة واقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة اى معركة حربية أيا كان حجمها . لننظر مثلا نموذجا رائدا فى تاريخ الفكر الاسلامى ... انه حجة الاسلام الغزالى الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعا منتصرا ، فماذا كان يفعل . يقول الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) : « انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ... واذ ذلك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده حقا » .

وقياسا على ما يقوله الامام الغزالى نجد أن استيعاب الانتاج الاستشراقى حول الاسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقدا صحيحا واثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف ، الأمر الذى يجعل المستشرقين يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسبا لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم . ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون حين يشير الى أن هناك طريقا واحدا فقط لنقد المستشرقين . وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم ، ويجب أن يرتبط نقدنا لانتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة ، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا ، وان نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر .

وقد يتمثل الجانب الايجابى للاستشراق فى صورة الهجوم علينا وعلى امجادنا ولبس فى صورة المدح ، وكلنا نعلم أن هناك عــددا لا بأس به من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا فى مؤلفاتهم وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا ، وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) . ولكن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديرى علينا ، فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التى تذكرنا بالعز الذى كان ، ونركن الى ذاك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا ، ونظن أننا عظماء لأن اجدادنا كانوا عظماء ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقــول :

« ان المسلمين اصبحوا كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ، اجابوه ان آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة . ان الشرقيين كلما ارادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا . ولكنكم أنتم أولاء كما كنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آباؤكم الا أن تفعلوا فعلهم » .

ومن هنا نقول ان الجانب الهجومى التفنيدى الاســـتفزازى فى انتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيرا من جانب المدح تأكيدا للمثل المعروف « رب ضارة نافعة » ، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزا لنا لنخرج من حالـــة الركود الفكرى التى وصـــلنا اليها لننطلق من جديد ، فننهض نبنى أفكارنا من جديد ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا ، وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له فننهض من كبوتنا . ولعل هـــذا ينطبق على تفسير توينبى للحضارة بأنها استجابة للتحدى بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحديا معينا .

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات فى رد الهجوم وترقب

الطعنات للرد عليها ، وانما هو الرد الفعال الذى ينتقل الى الموقف الأقوى . فلا يجوز أن نقف دائما موقف المعتدى عليه ، فالمعتدى عليه غالبا ما يكون ضعيفا . ولهذا لابد من أن نغير وضعنا ، وذلك لن يكون الا بتغيير افكارنا ، فنحن لسنا متخلفين لقلة أشيائنا ، ولكن تخلفنا لقلة افكارنا وتبدد جهودنا ، ولن تتغير احوالنا الا بتغيير ما فى نفوسنا ((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (١) .

ولابد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ، ووجوده نفســـه مشروط بعجز العالم الاسلامى عن معرفة ذاته . فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية . ويوم أن يعى العالم الاسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى — يومها سيجد الاستشراق نفسه فى ازمة ، وخاصة الاستشراق المشتغل بالاسلام ، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوروبا ولا فى العالم الاسلامى . ولكى نكون أكثر وضوحا وأكثر تحديدا فى تصوير ما ينبغى علينا أن نقوم به لمواجهة الاستشراق نذكر فيما يلى بعض النقاط التى نعتقد أنها امور اساسية فى هذا المجال :

(١) علينا ان ننظر الى حركة الاستشراق بكل جدية ، ونأخذ فى حسابنا أن لها آثارا عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الاسلامى وفى العالم الغربى على السواء . ولهذا لابد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة . وليس يكفى أن نقول ان ما يكتبونه كلام فارغ . فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشارا واسعا على مستوى عالمى . ومواجهته لابد أن تكون على نفس المستوى العالمى . وبالكلام المليان على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس .

(١) الرعد : ١١ .

(٢) بدلا من أن نظل نقتات فكريا من دائرة المعارف الاسلامية التى قام باعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية والتى تجاوزوها هم وانتهوا منذ بضع سنوات من اصدار دائرة معارف اسلامية جديدة — علينا أن نقوم نحن المسلمين باصدار دائرة معارف اسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسية تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الاسلامية للمستشرقين تخطيطا وتنظيما وتتفوق عليها علميا ، وتنقل وجهة النظر الاسلامية فى شتى فروع الدراسات الاسلامية والعربية الى المسلمين وغير المسلمين على السواء .

فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية وربما معادية لأفكارنا ، فلا نلومن عندئذ الا انفسنا .

(٣) علينا أن نوحد جهودنا فى العالم الاسلامى لاقامة مؤسسة اسلامية علمية عالمية لا تنتمى بالولاء الى بلد اسلامى معين ولا لمذهب سياسى أو فكرى أو دينى معين ، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله محمد ﷺ ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الاسلامية فى شتى أنحاء العالم ، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة ، وتعمل على استعادة اصالتنا الفكرية واستقلالنا فى ميدان الأفكار ، فهذا هو الطريق الصحيح الى الاستقلال الاقتصادى والسياسى ، اذ أن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه على اية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه .

والأمر الذى يؤسف له حقا هو اننا على امتداد العالم الاسلامى بسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون وبكل ما لنا من امكانات هائلة

لا نملك مؤسسة علمية دولية لها نفس الامكانات العلمية والمادية التى تملكها المؤسسة الاستشراقية . أليس هذا من الأمور التى تدعو الى الأسى والحسرة ؟ .

(٤) لابد أن تكون لنا مؤسسة تبشيرية عالمية ، وأعنى بذلك جهازا للدعوة الاسلامية فى الخارج يدعو للاسلام من ناحية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ويحمى المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة . ولابد من امدار كتب اسلامية باللغات العالمية الحية تصحح التصورات الخاطئة عن الاسلام فى الأذهان وتعرض الاسلام بأسلوب علمى يتناسب مع العقلية المعاصرة ، وتقدم الحلول الاسلامية لمشكلات المسلمين العصرية .

(٥) لابد من اعداد ترجمة مقبولة لمعانى القرآن باللغات الحية نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات والتى قام باعدادها المستشرقون وصدورها فى غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الاسلام . ولابد أيضا من اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها أيضا لتكون مع ترجمة معانى القرآن فى متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية وفى متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الاسلام من منابعه الأصلية .

(٦) العمل على تنقية التراث الاسلامى حتى يكون غذاء فكريا صالحا للمسلم . فتراثنا فيه الغث وفيه السمين . ومع أن الاسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والاسرائيليات التى تشتمل عليها بعض كتب التراث لدينا ، فان المستشرقين يستخدمون هذا التراث بكل ما فيه . ويكفى أن نشير فى هذا الصدد الى مثال واحد وهو قصة الغرانيق المذكورة فى

كتبنا والتى ركز عليها المستشرقون ، فاذا اتهمناهم بالتجنى حق لهم أن يردوا الاتهام ويقولوا : نحن لم نخترع شيئا من عندياتنا . أليست القصة واردة فى مصادركم المعتمدة ؟ .

(٧) محاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والاســلامية فى الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التى تعقد بين بلدان العالم الاسلامى ودول أوروبا وأمريكا ، وذلك بارسال أساتذة أكفاء من الأقطار الاسلامية الى معاقل الاستشراق للتدريس فيها . وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الأوروبية عن الاسلام بالعمل العلمى الدءوب وليس عن طريق الشعارات فقط . واعتقد ان هناك الآن جامعات فى أوروبا وأمريكا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك .

***

● **ايها الاخوة الأعزاء :**

لقد حاولنا بما عرضناه على مسامعكم فى هذه المحاضرة من نقاط أن نكون منصفين لأنفسنا ولغيرنا ، وأن نكون موضـــوعيين نرى الأسود أسود والأبيض أبيض حتى لا تختلط علينا الرؤية فنخطىء الطريق الصحيح الى فهم أبعاد المشكلة .. وليس ما قلناه عن الاسلام والاستشراق هو نهاية المطاف . وانما هى مجرد ملاحظات نقصـــد من ورائها الدعوة الى التأمل والتفكير فى أبعاد هذه المشكلة المطروحة .

وأرجو أن أكون قد وفقت الى الصواب .. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

***

مراجـــع البحث

١ — تراث الاسلام — القسم الأول — تصنيف شاخت وبوزورث . ترجمة د. محمد زهير السمهورى (سلسلة عالم المعرفـــة بالكويت — رمضان ١٣٩٨ — اغسطس ١٩٧٨) .

٢ — الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية . تأليف رودى بارت . ترجمة د. مصطفى ماهر . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧ .

٣ — نظرة الغرب الى الاسلام فى القرون الوسطى تأليف ر . و . سذرن . تعريب د. على فهمى خشيم ، د. صـــلاح الدين حسن . دار مكتبة الفكر طرابلس — ليبيا ١٩٧٥ .

٤ — الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى — دار الفكر بيروت ١٩٧٣ .

٥ — انتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الاسلامى الحديث . تأليف مالك بن نبى . مكتبة عمار بالقاهرة ١٩٧٠ .

٦ — أوروبا والاسلام — تأليف هشام جعيط ، ترجمة د. طلال عتريسى . دار الحقيقة . بيروت ١٩٨٠ .

٧ — المستشرقون — فى ٣ أجزاء — تأليف نجيب العقيقى . الطبعة الرابعة . دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠ / ١٩٨١ .

٨ — الاسلام فى الفكر الغربى — للدكتور محمود حمدى زقزوق . دار القلم بالكويت ١٩٨١ .

٩ — Gustav Pfannmueller : Handbuch der Islam literature, Berlin 1923.

١٠ — Edward W. Said Orientalismus, Frankfurt/M. 1981.

١١ — C.E. Bosworth : Orientalism and Orientalists (in : Arab Islamic Bibliography), 1971 Great Pritain.

محتويات الكتاب

الصفحة

***

رقم الايداع ٨٤/٢٩٢٧
الترقيم الدولى x — ٠٢٨ — ٣٠٧ — ٩٧٧